في مَدْحِ التُّفَّاح

عارف الخاجه

يُطْرِبُني مَدْحُ التّفاحِ إذا اشتدّتْ حمرتُهُ وارتاحَ على شفتيَّ، أقبِّلهُ حتّى يفتحَ أسرارَه.. يُطربني مُذْ واعدني بالعيدِ وأودعني بوداعته وبشاشتِه وفصاحته وارتادَ مجاهلَ صوتي حتى خفْتُ من الفتنة.. يُطربني حينَ يُضيفُ إليَّ السِّحرَ الورديَّ ويُخرجني من مجدِ الأشعارِ الى مجدِ الأُنثى، أنثَى أنَّثها السِّحْرُ فصارت تفّاحهْ.. يا روحي اتّقدي فالنارُ تفحُّ وتهتزُّ الأيامُ ويصحو الجيرانْ، أنا البرعمُ والمِرواسُ وقافلةٌ تقطعُ تاريخَ الأحزانْ، أنا بركةُ ضَوْءٍ تدخلها الحوريّاتُ قبيلَ بروغِ الشمس لتلتقيَ الأثداءُ وتصهلَ خيلُ الريحِ، أنا حفلةُ خمرٍ يحضرها المدّاحونَ إذا اكتملَ المأزقُ، والصوفيّونَ إذا احتدمَ الموقفُ، والعذريّونَ إذا اشتدَّ الشوقُ، أنا نَرْدُ القمّارينَ وهم يرمونَ الحُلْمَ أمامَ غُلامِ السلطانْ، أنا تعَبٌ يقتنصُ الوقتَ ليصنعَ بحراً للربّانْ، أنا... وتُلحِّينَ على الوردةِ في أوْجِ تَفَتُّحِها، ينفرُ ظبيٌ، يرتفعُ السِّرْبُ الأبيضُ في الأبياتِ وينشقُّ الصَّخْرُ عنِ الماء.. صبيَّةُ قلبي خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِ الوَرْدِ وَصُلْبِ النُّورِ وَمِنْ عَسَلِ الإنْشادِ، إذا ذابت ذُبْتُ وإن صاحتْ صحْتُ وإن غنّتْ غنّيتُ وإنْ سكرتْ يشتعلُ العُمْرُ، أُنوثَتُها النَّارُ، يداها الأرضُ، وعيناها الكونُ، إذا مرّتْ خرَّ العَسْكَرُ وارتجفَ الحرَاسُ وغامت أفئدةُ النسّاكِ، إذا الْتَفَتَتْ يتفتَّتُ تاريخي وأصيرُ غريباً في المنفى لا أقبضُ طيفاً أوْ وَتَراً أوْ تاجَ الشمسِ وأفتحُ جرحي للبحْرِ وأدفنُ وجهي في كَفَّيَّ لعلّي أنهضُ مِنْ جَسَدي، ولعلّي أحتضنُ الفجْرَ وأصنعُ منهُ أشرعةً، إن مرّتْ أتوسَّدُ جمرةَ موّالي وأُنادي حتى تشخصَني الأبصارُ وأُدْرِكَها، وأُنادي يا خالقَها يا مَنْ فجَّرتَ أنوثَتَها ونقشتَ خُرافَتَها ونَحَتَّ مِنَ الأنغامِ براءَتَها وَتَلَطَّفْتَ وأنتَ تُزيِّنُ قامَتَها وتلفُّ بعطفكَ لَفَّتَها وتصوغُ بفيضكَ فِتْنَتَها، يا مولايَ أحنُّ لعينيْها، وأموتُ لألمسَ كفّيْها، وأذوبُ لتكرارِ المشهدِ مُذْ وَقَفَتْ تطْعنني في الحلْمِ بنهديها.. الرّيحُ بلادي والموجُ حصاني، وَعَلَيَّ البَوْحُ لأبرأَ مِنْ قَتلِ الوَحْشَةِ ثُمَّ أُرَوِّضَ شوقي وعذابي، وَعَلَيّ الرَّقْصُ لتدخُلَ كُلُّ نساءِ الأرضِ كتابي، وَعَلَيَّ اللعنةُ إنْ لم أجعلْكِ تَدُقِّينَ بقلبكِ بابي.